أصالة الفكر الأنثروبولوجي الإسلامي –قراءة في التأسيس و النشأة–

أ. محمد مينار

جامعة قسنطينة

مقدمـــة:

كان لاهتمام للفلاسفة و المفكرين على مر العصور بالوجود الإنساني و سبر أغوار المجتمعات و الوقوف على تقاليدها و أعرافها و عقد المقارنات فيما بينها، أثر بالغ في نشأة و تطور الأنثروبولوجيا[1]؛ ذلك أنه ليس من الإنصاف القول إن الدراسات الأنثروبولوجية ظهرت دفعة واحدة من قبل الفكر الغربي، لأن ذلك يستتبع القول بانعدام مشاركة بقية الأجناس و الشعوب الأخرى في التأسيس لهذا العلم، أو التسليم بأن ليس لبقية الشعوب و المجتمعات أي نصيب من هذا التأسيس على حد زعم غير المنصفين من الغربيين.

و تبعا لذلك تأتي هذه الورقة المتواضعة لتثير الإشكال مرة أخرى، عن مدى أصالة الفكر الأنثروبولوجي الإسلامي؟، باعتبار أن هناك عددا ليس بقليل من المهتمين بالفلسفة الاجتماعية أو المشتغلين داخل الحقل الأنثروبولوجي يهملون حلقة معرفية تاريخية بالغة الخطورة[2]، هي حلقة الفكر الإسلامي، الذي تماهت معه كثيرا من الممارسات الأنثروبولوجية التي لا يمكن تجاهلها أو إنكار فضلها ضمن المشترك المعرفي الإنساني.

و عليه فإنه من خلال هذا الطرح نرغب في الوقوف على أهم الملابسات المعرفية التي رافقت الإرهاصات الأولى لبروز الفكر الأنثروبولوجي الإسلامي، و إلى أي مدى أمكنه المساهمة في تشكل هذا العلم و التأسيس له؟، و إلى أي حد أمكن للفكر الأنثروبولوجي الإسلامي الاغتراف من معين القرءان الكريم، بوصفه من أهم البواعث المعرفية الباعثة على التأسيس له و الاشتغال به؟.

أولا: بواكير الفكر الأنتروبولوجي الإسلامي:

عرف الفكر الإسلامي اهتمامات مبكرة بالفكر الأنثروبولوجي خاضها مجموعة من المفكرين المسلمين، فنحن هنا بصدد محاولة الكشف عن المحفزات المعرفية التي دعت هؤلاء المفكرين من المسلمين إلى البحث في مختلف الجوانب المشكلة للشعوب و الأجناس التي عاصروها آنذاك، ولعل من أكثر المحفزات تأثيرا في توجيه اهتماماتهم نحو البحث الأنثروبولوجي هو القرءان الكريم؛ باعتباره المحرك الأساس في توجيه أبحاثهم و نزوعهم إلى تتبع الظواهر الأنثروبولوجية التي شكلت البنى الاجتماعية والنفسية و العقائدية لتلك الشعوب و الأمم؛ذلك أن القرءان الكريم هو الذي حفز العلماء و المفكرين المسلمين على البحث في طبائع المجتمعات و ثقافاتها، إذ مدهم بالمفاهيم والمقولات و الأدوات المنهجية و المعطيات الأنثروبولوجية التي ساعدتهم في أبحاثهم من قبيل: الدعوة إلى استقراء أحوال الأمم والشعوب البائدة و مقارنتها بأحوال الأمم اللاحقة، و الكشف عن السنن الحاكمة في تطور المجتمعات و الاستفادة منها، هذا إن دل على شيء إنما يدل على الانفتاح الاجتماعي و الثقافي و الإنساني الذي زود به القرءان الكريم هؤلاء العلماء.

و تبعا لذلك فـإن جملة الممارسات الأنثروبولوجية التي تجلت في أعمال المفكرين المسلمين – وإن كانت لم تتسم آنذاك بالمنهج العلمي الصارم و بالقواعد المنهجية الناظمة للفعل الأنثروبولوجي– إنما جاءت كثمرة لما أحدثه الإسلام من إثراء فكري و حضاري صقل أذهان هؤلاء العلماء و دفعهم إلى الاشتغال في شتى حقول المعرفة الأنثروبولوجية[3].

لقد مثل القرءان الكريم أحد أهم المشارب الفكرية الأساسية الموجهة لشتى ممارسات العلماء المسلمين و رحلاتهم؛ إذ إن كثيرا من الآيـات القرءانية حثت على السير في الأرض، و التقلب في الأمصار منها قوله تعالى:(قُلْ سِيرُواْ فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (11)[4]، وقوله تعالى:(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (13)[5]، و قوله تعالى أيضا:(وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ (22)[6]، فجملة هذه الآيات القرءانية وغيرها جاءت بالدعوة إلى السير في الأرض، لأن السير باعث على التدبر و الاعتبار بأحوال الغير وموقظ للحس وفاتح للعقل و العين على جملة المشاهدات الجديدة، التي لم يألفها الإنسان من قبل[7].

ثانيا: صلة الرحلات الجغرافية عند المسلمين بالأنثروبولوجيا:

يمكن اعتبار الرحلات الجغرافية من أهم العوامل التي غذت الفكر الأنتروبولوجي الإسلامي، ومظهرا من مظاهر مشاركة المسلمين في التأسيس لعلوم تتعلق بالإنسان، و لعل من أبين الإضافات الإسلامية في هذا المجال ما قاله **ابن حوقل**[8]، في كتابه: **صورة الأرض**: "... و قد ذكرت في آخر كتابي هذا كيف تعاورتني الأسفار، و اقتطعتني في البر دون ركوب البحار، إلى أن سلكت وجه الأرض بأجمعه في طولها و قطعت وتر الشمس على ظهرها، ووصفت رجالات أهل البلدان و أعيان ملوكها من ذوي السلطان و أهل الإمكان، و المقدمين في كل ناحية و بلد بالإحسان، إلى ذكر النادرة بعد النادرة من محاسنهم و الفضيلة بعد الفضيلة من مكارمهم"[9].

هذا، و من المبرزين في ميدان الرحلات الجغرافية أيضا، **ابن بطوطة**[10]، فقد كانت لرحلاته وتقلباته في شتى الأمصار" خصائص ذات طابع أنثروبولوجي، برزت في اهتمامه بالناس ووصف حياتهم اليومية، وطابع شخصياتهم وأنماط سلوكاتهم وقيمهم وتقاليدهم"[11]، فقد سمحت له أسفاره الطويلة

بالوقوف على طبائع الشعوب و الأمم و استخلاص العلاقات الناشئة بين البيئة الجغرافية وأنماط السلوك السائدة، فنجده يشير إلى ذلك بقوله: " ... ثم سافرت منها إلى مدينة صور، و هي خراب وبخارجها قرية معمورة، و أكثر أهلها رافضيون[الرافضة هم فرقة من الشيعة، سموا بذلك لأنهم رفضوا خلافة أبي بكر و عمر و عثمان رضي الله عنهم جميعا يعيشون بجنوب لبنان]، و لقد نزلت بها مرة على بعض المياه أريد الوضوء فأتى بعض أهل تلك القرية ليتوضأ فبدأ بغسل رجليه ثم غسل وجهه و لم يتمضمض و لا استنشق ثم مسح بعض رأسه فأخذت عليه في فعله فقال لي: إن البناء إنما يكون ابتداؤه من أساسه، و مدينة هي التي صور يضرب بها المثل في الحصانة و المنعة لأن البحر محيط بها من ثلاث جهاتها"[12].

و يمكن أيضا اعتبار **البيروني**[13]، من العلماء الرحالة المسلمين الذين أسهموا في التأسيس لعلم الإنسان، أو لنقل أن أعماله تستحق بأن توصف بأنها تمثل فتحا أنثروبولوجيا في منتهى الفرادة والتميز، فإذا " كان علم الإنسان يقوم على الملاحظة من الداخل على نطاق واسع في الثقافات الأخرى، و الإفادة من المادة العلمية التي تجمع بالتحليل المحايد، و بالرأي البريء من الهوى من بدايته، و باستخدام الطريقة المقارنة، فإن **البيروني** يكون عالما من علماء الإنسان بأرقى المعايير المعاصرة "[14]، و انطلاقا من ذلك يمكن اعتبار كتابه" **تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة** " مدونة أنثروبولوجية بحق؛ إذ انبرى **البيروني** إلى دراسة الأنماط الثقافية المشكلة للمجتمع الهندي على كثافة أطيافه و اتجاهاته الدينية و تعقيداته الاجتماعية، " الأمر الذي جعلها مادة خصبة من ناحية المنهج الأنثروبولوجي في دراسة الشعوب و الثقافات الإنسانية "[15].

إضافة إلى ذلك، لا يمكن بالطبع في هذا المقام إغفال واحد من أهم أعلام الحضارة الإسلامية و أكثرهم تأثيرا في مجرى التاريخ الإنساني، و هو عبد الرحمن ابن خلدون؛ حيث كانت جل اهتماماته تصب ضمن الحقول الأنثروبولوجية، خصوصا حينما نجده يعزي اختلاف الناس في أنماطهم الثقافية

والاجتماعية و بنياتهم النفسية، إلى طبيعة العلاقة بين البيئة الجغرافية و طبيعة العمران، فهو فضلا عن ربطه العمران المادي بالعمران النفسي، نجده يفسر طبائع الناس و أمزجتهم بطبيعة الهواء أو الماء الذي يسود في بيئتهم[16].

يمكن القول مع كثير من الموضوعية العلمية أن العلامة **ابن خلدون** لم تكن انطلاقته في الحقيقة انطلاقة فلسفية نسقيه، إنما كان واقعيا في أبحاثه و ذلك باستقراءه للواقع الاجتماعي، و على هذا النحو يبدو **ابن خلدون** من المهتمين إلى حد بعيد بالدراسات السوسيوأنثروبولوجية، ما دام قد اعتمد في أعماله على المنهج العلمي ــ الوضعي[17].

و في هذا الإطار أيضا يذهب الدكتور السيد حامد إلى اعتبار أن **ابن خلدون** يعد " أحد رواد الأنثروبولوجيا الاجتماعية بالنظر إلى البعد الأنثروبولوجي في دراسات ابن خلدون أولاً ثم مدى تأثيره في تشكيل الأنثروبولوجيا الاجتماعية البريطانية ثانياً، كما أنه كان في معالجته للعمران البشري أكثر حداثة من رواد الوظيفية البنائية، على الرغم من أنه مفكر ينتمي إلى القرن الرابع عشر وبذلك يكون ابن خلدون رائد الأنثروبولوجيا الاجتماعية بامتياز"[18].

توصيات الدراسة :

- توثيق دور العلماء المسلمين في إثراء الفكر الأنثروبولوجي العالمي، والتعرف على الدور الكبير الذي قام به الرحالة المسلمون في وضع منطلقات الفكر الأنثروبولوجي وريادتهم في هذا المضمار.
- التنبيه إلى ضرورة الاهتمام بالتأصيل الإسلامي للدراسات الأنثروبولوجية، أو دراسة نماذج لها دورها في نشأة الأنثروبولوجيا.
- عقد مؤتمرات و ندوات للتعريف بالإسهامات الحضارية للمسلمين في الدراسات الأنثروبولوجية.

- دعم المخابر الجامعة التي تصب اهتماماتها ضمن البحث في جذور الفكر الأنثروبولوجي الإسلامي.

- توجيه طلبة ما بعد التدرج إلى التعلق بالمواضيع التي تبحث في كيفية إعادة تفعيل التراث الأنثروبولوجي الإسلامي، و البحث عن مكامن التميز و الفرادة فيه.

- الدعوة إلى مأسسة البحث الأنثروبولوجي، و ذلك باستحداث مراكز تعكف على البحث في التراث الأنثروبولوجي الإسلامي.

خاتمة الدراسة :

و على الجملة يمكن القول أن الفكر الأنثروبولوجي الإسلامي فكر أصيل ضمن المنظومة المعرفية الإسلامية، و بالرغم من أنه لم يكن فكرا مستقلا له أدواته المنهجية الخاصة به و مستقلا عن الفكر الإسلامي عموما، إلا أنه يمكن القول أنه قد ساد كنسق فكري و منهجي ضمن ثنايا الخبرة المعرفية التاريخية الإسلامية، و مرد ذلك إلى أمر هام و هو أن الفكر الإسلامي في الحضارة الإسلامية كان يطبعه التكامل المعرفي، فلم يكن هناك مسوغ معرفي يفرض الحاجة إلى إفراد علم الإنسان أو الأنثروبولوجيا بالاستقلال.

و تبعا لذلك، فإن الحاجة ماسة إلى تتبع مسارات العبقرية الأنثروبولوجية الإسلامي، ثم تقديمها في الإطار الأكاديمي، بوصفها بديلا معرفيا يتميز عن الأنثروبولوجيا الغربية، التي تشكلت ضمن منظومة مركزية غربية تارة، أو عن حاجة ماسة فرضتها الحركة الإستعمارية مند قرنين من الزمان.

علاوة على ذلك، فإن الحاجة تبدو ماسة إلى إبداع منهج إبستيمولوجي، يمكن وفقه إعادة قراءة التراث الإسلامي و مسائلة مقولاته، لكسر الاستتباع إلى الفكر الغربي من جهة، ثم إعادة تطوير الممارسة الأنثروبولوجية الثرية التي مارسها الفكر الإسلامي في بواكره الأولى.

هوامش الدراسة :

1- بالرجوع إلى القواميس، تعرف الأنتروبولوجيا بأنها: " دراسة الاختلافات الاجتماعية و الجسمية لدى البشر، أو هي كذلك، علم الإنسان من حيث هو كائن فيزيقي و اجتماعي "، أنظر: محمد الصالح، **الشامل، قاموس مصطلحات العلوم الاجتماعية، إنجليزي عربي**، ط 01، دار عـــالم الكتب للطباعة و النشر و التوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، 1999م، ص 42.

و أنظر كذلك: أيكه هولتكرانس، **قاموس مصطلحات الإثنولوجيا و الفولكلور**، ترجمة الدكتور، محمد الجوهري والدكتور حسن الشامي، ط 01، دار المعرف، مصر، 1972، ص 39.

2- لعل من أبرز الأمثلة على ذلك التقسيمات لتي اعتمدها الفكر الغربي، منها: تقسيم بدنجتون في كتابه: "مقدّمة في الأنتروبولوجيا الاجتماعية"، إلى قسمين: الأنتروبولوجيا الطبيعية أو العضوية، والأنتروبولوجيا الثقافية.

و كذلك تقسيم بارنو في كتابه: "الأنتروبولوجيا الثقافية"، إلى: الأنتروبولوجيا الثقافية، و الأنتروبولوجيا النفسية أو الثقافة أو الشخصية، أو الأنتروبولوجيا الثقافية، هذه التقسيمات و غيرها لا تشير إلى فضل و إسهامات الأقوام الأخرى في التأسيس الأنتروبولوجيا بمختلف فروعها و تخصصاتها، سواء إسهامات الفكر الشرقي القديم، أو ممارسات العلماء المسلمين و الرحالة الجغرافيين، إلا أن هذا في الحقيقة لا يبعث على الدهشة، باعتبار التحيز المعرفي الذي يطبع ذات الفكر الغربي.

3- حسين فهيم، **قصة الأنتروبولوجيا، فصول في تاريخ علم الإنسان**، سلسلة كتب عالم المعرفة، عدد 98، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب، الكويت، فبراير 1986م، ص 44.

4- سورة العنكبوت، الآية 20.

5- سورة الحجرات، الآية 03.

6- سورة الروم، الآية 22.

7- محمد السيد طنطاوي، **التفسير الوسيط للقرءان الكريم**، د- ط، مطبعة السعادة، القاهرة، 1985، ج 11، ص 26 .

8- هو أبو القاسم محمد بن علي الموصلي البغدادي المعروف بابن حوقل، رحالة من بلدة نصيبين بالجزيرة اتخذ التجارة مهنة له، وبدأ تجواله من بغداد عام 331هـ/943م. فحملته أسفاره إلى شمالي إفريقية والأندلس، وزار نابولي وباليرمو في إيطالية، وعرف العراق وإيران وجزءاً من الهند، وعاد من أسفاره عام 362هـ/973م. وهذا يعني أنه قضى في الترحال نحو ثلاثين عاما، أنظر، الموسوعة العربية: على شبكة الإنترنت، الموقع:

http://www.arab-ency.com/index.php?module=pnEncyclopedia&func=display_term&id=5776

9- أبو القاسم بن حوقل النصيبي، **صورة الأرض**، د- ط، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، 1992م، ص11 .

10- هو محمد بن عبد الله بن إبراهيم الطنجي اللواتي نسبة إلى قبيلة لواتة من البربر، المعروف بابن بطوطة، ويكنى أبا عبد الله ويلقب بشمس الدين، من أشهر الرّحالة المسلمين، أنظر، الموسوعة العربية: على شبكة الإنترنت، الموقع:

http://www.arab-ency.com/index.php?module=pnEncyclopedia&func=display_term&id=43,50&vid=9&searchwords=yNjm2OU

11- بشير خلف، **قراءة في كتاب: مبادئ الأنثروبولوجيا (علم الإنسان)**، على شبكة الإنترنت، الموقع:

http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=311203

12- شمس الدين أبي عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي، **رحلة ابن بطوطة، المسماة: تحفة النظار في غرائب الأمصار و عجائب الأسفار**، تقديم و تحقيق: عبد الهادي التازي، د – ط، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، سلسلة التراث، ص 258.

13- هو أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني، فيلسوف ورياضي ومؤرخ من أهل خوارزم، ولد في ضاحية من ضواحيها، ولذلك كناه بعض المؤلفين العرب، كياقوت الحموي، بالخوارزمي، ويذكر ياقوت أن كلمة « بيروني »

معناها: البرّاني لأنه كان قليل الإقامة في خوارزم، وتوفي في غزنة من أعمال أفغانستان، أنظر، الموسوعة العربية: على شبكة الإنترنت، الموقع:

http://www.arab-ency.com/index.php?module=pnEncyclopedia&func=display_term&id=4839&vid=9&searchwords=yO3R5uTt

14-أكبر. س . أحمد، **نحو علم الإنسان الإسلامي، تعريف و نظريات و اتجاهات**، ترجمة: عبد الغني خلف الله، ط 01، سلسلة إسلامية المعرفة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي و دار البشير للنشر و للتوزيع، هيرندن، فيرجينا، الولايات المتحدة الأمريكية، 1990، ص 113 و ما بعدها.

15-حسين فهيم، **قصة الأنتروبولوجيا، فصول في تاريخ علم الإنسان**، ص 45 .

16-عبد الرحمن ابن خلدون، **المقدمة**، ط 01، دار الكتب العلمية، بيروت، 2000م، ج1، ص 291.

17-رائد محمد طه، **إسهامات ابن خلدون في رفد علم الاجتماع و الأنثروبولوجيا بمفاهيم لغوية**، بحث مقدم إلى مؤتمر: ابن خلدون: علامة الشرق و الغرب، كلية الآداب، جامعة النجاح الوطنية، فلسطين، 2012م، ص 18.

18-السيد حامد، **ابن خلدون كأحد رواد الأنثروبولوجيا الاجتماعية**، بحث مقدم إلى مؤتمر: عبد الرحمن ابن خلدون: قراءة معرفية و منهجية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي و جامعة آل البيت، عمان، الأردن،22/21 ربيع الثاني، 10/9 ماي2007م، ص10.